تداولية الكتابة التاريخية: مقاربة حجاجية لكتاب البدء والتاريخ لأبي طاهر المقدسي

The Pragmatics of Historical Writing: An Argumentative Approach to Abu Tahir al-Maqdisi's book al-Badʾ wa al-Tārīkh

بختة عزوزي

جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة– (الجزائر)، b.azzouzi@univ-dbkm.dz

تاريخ الاستلام: 2025/12/09 تاريخ القبول: 2025/12/22 تاريخ النشر: 2025/12/30

ملخص:

إن اهتمام العرب منذ القرون الأولى للهجرة بالتاريخ، والبحث في أسبابه وعله، أدت إلى بروز **فلسفة التاريخ**، وقد اشتهر في الاتجاه المؤرخ المطهر بن الطاهر المقدسي(355هـ)، ومن أبرز مؤلفاته كتاب **(البدء والتاريخ)** الذي لا يكتفي بتسجيل الوقائع التاريخية، وإنما يقدّم رؤية فكرية متداخلة للتاريخ تجمع بين البعد الديني والعقلي، وتوظّف الحجاج والإقناع في صياغة خطاب مؤثر في المتلقي، ويسعى البحث إلى تتبع مكونات البنية الحجاجية من خلال تتبع حضورها على المستويين المنطقي واللغوي.

كلمات مفتاحية: علم التاريخ، المطهر بن الطاهر المقدسي، البدء والتاريخ، التداولية، الحجاج.

Abstract:

Arab interest in history from the earliest centuries of the Hijra, along with their search for its causes and underlying reasons, led to the emergence of the philosophy of history. A prominent figure in this intellectual trend is the historian al-Muṭahhar ibn al-Ṭāhir al-Maqdisī (d. 355 AH). Among his major works is *al-Badʾ wa al-Tārīkh*, which does not merely record historical events but offers an intricate intellectual vision of history that integrates both religious and rational dimensions. The work employs argumentation and persuasion to construct a compelling discourse for the reader. This study seeks to trace the components of the argumentative structure by examining their presence on both the logical and linguistic levels.

Keywords: History; al-Muṭahhar ibn al-Ṭāhir al-Maqdisī; Philosophy of History; Pragmatics; Argumentation.

المؤلف المرسل: بختة عزوزي، **الإيميل**: b.azzouzi@univ-dbkm.dz

1. المقدمة:

يعدّ كتاب **البدء والتاريخ للمطهر بن الطاهر المقدسي** من أبرز المصنفات التاريخية التي جمعت بين دفتيها: السرد التاريخي والتفكير الفلسفي، غير أن ما يميز هذا الكتاب ليس مادته التاريخية فحسب وإنّما طريقة بناء هذا الخطاب، فهو غني بالآليات التداولية والحجاجية التي تجعل منه نصا إقناعيا بالدرجة الأولى.

وجاءت هذه الدراسة لتقارب الكتاب من زاوية تداولية حجاجية معتمدة على المنهج التداولي اللساني، من خلال الكشف عن المعنى الحجاجي الموجود في مقصدية هذا الخطاب، وإبراز ملامح فلسفة التاريخ عند المؤرخين العرب من خلال نموذج المقدسي، وتنطلق هذه الدراسة من الإشكالية التالية:

- ❖ كيف يوظف المقدسي الآليات التداولية و الحجاجية في مدونته البدء والتاريخ لبناء خطاب تاريخي يتجاوز السرد التوثيقي إلى التأثير والإقناع؟ ولقد تفرعت عن هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة الفرعية:

- ❖ ما طبيعة السياق التداولي الذي كتب فيه المقدسي كتابه؟

- ❖ فيما تتمثل آليات الحجاج في المدونة؟

2. الجهاز المفاهيمي التداولي:

لولوج أي حقل معرفي مهما كان جنسه، يتطلب معرفة مفاهيمه ومصطلحاته فهي الضابط المنهجي والأداة الأساسية للفهم والاستيعاب، ولاقتحام موضوع الدراسة لابد من الوقوف على الترسانة المصطلحية المرتبطة بالتداولية، وليس من اليسير حصر مفهومها في تعريف واضح موحد فهي متداخل، وبتفكيك معناها اللغوي نجدها لا تخرج عن معنى" **الانتقال**"[1]كما تفيد في " **التحول**"[2] فقد وجدت في المعاجم العربية بوصفها مادة لغوية لها جذور معجمية.

وإن سياق البحث يفرض علينا الانتقال إلى ضبطها في **إطارها الاصطلاحي** الدقيق، حيث تبلور المفهوم في الدرس اللساني الحديث وتسمى بـ: علم التخاطب لأنها تهتم بالكيفية التي تكتسب بها العبارات معانيها داخل المواقف المختلفة، ومن المسائل المهمة التي تطرقت إليها **التمييز بين البنية**

والاستعمال فهي تهتم بدراسة اللغة في بعدها ،كيفية توظيفها داخل السياقات التواصلية، متجاوزة اللسانيات التقليدية وتدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال"[3] فاللسانيات التقليدية كان دورها منحصرا في وصف البنى اللغوية وتحليلها في جانبها الشكلي، في حين جعلت التداولية من اللغة ظاهرة تواصلية ترتبط بالاستعمال الفعلي.

وكما تعرف على أنها" مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وكيفية توظيف العلامات اللّغوية بنجاح في مختلف السياقات والمقامات المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، وكما تبحث في الشروط التي تجعل من هذا الخطاب رسالة تواصلية واضحة وفعالة، والنظر في الأسباب التي تؤدي إلى فشل عملية التواصل في اللغات الطبيعية"[4] لا تفهم اللغة في هذا الإطار بوصفها بنية معزولة، بل باعتبارها ممارسة والسياق هو الذي يحدد مقاصد المتكلّم ويفتح المجال أمام المتلقي لتأويل الخطاب وفهمه.

وعليه فإن تنوع المواقف التداولية وتغير السياقات يفضي بالضرورة إلى تنوع المعاني والدلالات، وهو ما يشكل لب الاهتمام في الدراسات التداولية التي تسعى إلى الكشف عن كيفية اشتغال اللغة في الاستعمال والتواصل لا بوصفها نسقا منفصلا، إذ لا تؤدي اللغة وظائفها إلا داخل الممارسة التواصلية، وبما أن الكلام ينجز في سياقات اجتماعية محددة، فإن فهم الخطاب يقتضي تحليل أثر هذه السياقات على بنيته ووظيفته التواصلية"[5]

وصفوة القول يمكننا الإقرار بأنّ التداولية تعد مجالا لسانيا يدرس استعمال اللغة في ارتباطه بالسياق والمقام، مع التركيز على مقاصد المتكلم وطرق فهم الخطاب وتأويله من طرف المتلقي، غير أن صياغة تعريف جامع مانع أمر صعب نظرا لتعدد روافدها وتداخلها مع مجالات معرفية مختلفة.

***مقومات الدرس التداولي:** لقد تميز الجهاز المفاهيمي للتداولية بسعة مجاله وثرائه، إذ اشتمل على نظريات متعددة أسهمت في بلورة هذا الحقل وتوسيعه، وعلى مفاهيم مركزية مثل: **الاستلزام الحواري، الإشاريات، الافتراض المسبق** وغيرها من الآليات التي تسهم في تفسير الخطاب، غير أن تركيزنا في هذا البحث سيتوجه بالأساس نحو **نظرية أفعال الكلام والحجاج** لارتباطهما المباشر بجوهر موضوعنا وما يمنحانه من تحليل للغة في بعدها التواصلي والإقناعي.

1.2. نظرية أفعال الكلام:

وهي أول ما انبثق من الدرس التداولي، يركز على ما ينجزه المتكلم من أفعال بواسطة أقواله لا على مضامينها اللغوية، كانت بداياتها مع **أوستين** في كتابه (**كيف ننجز الأشياء بالكلمات**)، وطورها من بعده **سيرل**، وتنطلق هذه النظرية من فكرة جوهرية مفادها أن القول ليس مجرد بنية لغوية تحمل معنى، بل هو فعل ينجز في سياق تواصلي محدد، و تتحول اللغة إلى وسيلة للفعل والتأثير حيث تتنوع الأفعال الكلامية بين ما يعبر عن المواقف والانفعالات وما يوجه المتلقي نحو القيام بفعل ما، فقد بينت النظرية البعد الإنجازي للغة، وهو ما مهد الطريق أمام نظرية الحجاج التي ركّزت بدورها على دور الخطاب في الإقناع والتأثير في المتلقي.

2.2. نظرية الحجاج:

إن الحجاج كممارسة يشكل عنصرا أساسيا في حياتنا اليومية، حيث يتغلغل في مختلف أنماط الخطاب ويتجلّى في صور وأساليب متنوعة، ومع ذلك فإن الحجاج كطبيعة وعلاقات وشروط وآليات اشتغال يكاد يكون مجهولا"[6] ويعدّ الحجاج كنظرية من أبرز مفرزات الدراسات اللغوية الحديثة في إطار اللسانيات التداولية، حيث ينظر إليه باعتباره جملة من الآليات الخطابية التي يوجهها المتكلم للمتلقي وذلك قصد إقناعه والتأثير فيه، وتتقاطع حوله عدة حقول معرفية إذ لا يقتصر على مجال واحد فيستمد مفاهيمه وآلياته من: اللسانيات، البلاغة، الفلسفة والمنطق، ورغم شيوعه فإنه يستعصي على الإحاطة والتعريف لتعدد استعمالاته، وتباين مرجعياته، حيث هناك الحجاج الفلسفي، والحجاج المنطقي، فضلا عن الحجاج البلاغي والتداولي المنبثق عن رؤية لسانية معاصرة"[7] و إن كانت النظرية طرح معاصر فإن لها امتداد تاريخي، حيث تعود أصولها الأولى لفلاسفة اليونان الذين عرفوا مبادئ الحجاج ومارسوا آلياته، غير أن الحجاج وجد تجليه الأوضح والأكثر منهجية في كتابات أرسطو ولا سيما في مؤلفه **الخطابة**، حيث ركز بشكل جلي على أدوات الإقناع (**الحجاج**).

و في التراث العربي فمصطلح الحجاج ليس وافدا جديدا حيث له جذور راسخة في التراث، تجلّى في مناظرات الفرق الكلامية، وبرز في نتاج الفلاسفة، فضلا عن البلاغة التي أولت عناية

خاصة بفنون الخطابة وكيفية التأثير في المتلقي، ولقد وقفنا في كتاب **المنهاج في ترتيب الحجاج** ما مفاده بأن" الحجاج هو علما من أرفع العلوم قدرا، وأعلاها شأنا، ولا سبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة، ولا اتضحت محاجة، ولا علم الصحيح من السقيم، ولا المعوج من المستقيم"[8] ولكنه لم يتبلور آنذاك في إطار نظري منظم يحدد آلياته وقوانينه كما الحال في الدرس اللساني المعاصر.

وكما سلف الذكر فإن نظرية الحجاج قد انطلقت من اللغة وبتحديد من نظرية أفعال الكلام ل: **أوستين وسيرل**، ولقد قدم **برلمان** تعريفا للحجاج على أنه "جملة من الأساليب التي تضطلع في الخطاب بوظيفة هي حمل المتلقي على الاقتناع بما نعرضه عليه، أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع"[9] وجاءت جهودهما في إطار ما يعرف بالحجاج الجديد، والهدف منها بناء نظرية بديلة عن المنطق الصوري الصارم، وتركز على الإقناع والبرهنة في السياق العملي.

وأما منطلق **ديكرو** للحجاج فقد كان لغويا – **الحجاج اللغوي**– الذي لا يقوم على اللّغة بالأساس بل كامن فيها، بينما عرف برلمان الحجاج باعتباره مجموعة أساليب وتقنيات في الخطاب تكون شبه منطقية أو شكلية أو رياضية، وقد بين ديكرو وأنسكمبر أنّ الحجاج باللغة يجعل الأقوال تتابع وتترابط على نحو دقيق فتكون بعضها حججا تدعم وتثبت بعضها"[10] فهو يرى أن البنية اللغوية نفسها تحمل توجيها حجاجيا.

ولا يمكن حصر جميع الجهود والنظريات التي تناو لت الحجاج، إذ تعدّدت المقاربات، وتنوعت، وما أشرنا إليه يمثل أبرز المساهمات التأسيسية التي مهدت لبناء نظرية الحجاج.

ولما كان الحجاج موضوعا للبحث تتجاذبه علوم كثيرة، ما جعل مباحثه غنية من حيث المفاهيم، وحتى من حيث النظريات وطرائق مقاربة النصوص، وما أقر به البعض من الدارسين أن الخطاب الحجاجي لا يقوم على عنصر واحد منعزل، بل يتأسس على ثلاث مكونات كبرى وهي: **المكون السياقي، والمكون المنطقي، والمكون اللغوي** ، وهذه المكونات لا تعمل في انفصال، وإنّما تتداخل في شبكة متكاملة من العلاقات، حيث ينهض المكون المنطقي بدور الوسيط الذي يضمن الانسجام بين البنية والمعطيات اللغوية"[11]

وبعد أن تبين لنا من خلال العرض النظري أن الخطاب الحجاجي يتأسس على ثلاث اتجاهات كبرى هي: السياقي، المنطقي، اللغوي، يصبح من الضروري الانتقال إلى المدونة التطبيقية لاختبار حضور هذه الأبعاد ورصد تفاعلها، وتتمثل هذه المدونة في كتاب البدء والتاريخ الذي يتيح مجالا خصبا لاستجلاء خصوصيات البنية الحجاجية في بعدها التداولي والإقناعي.

3. مقاربة حجاجية لكتاب البدء والتاريخ:

يشكّل كتاب البدء والتاريخ للمقدسي المدونة الأساس في هذا البحث، إذ يتجاوز طبيعته التاريخية ليكشف عن بناء حجاجي متعدد المستويات، وتحليله يقتضي استحضار ثلاث اتجاهات رئيسة: السياقي بما يضيء خلفياته الثقافية والسياسية، والمنطقي بما يبرز أسسه في الاستدلال والبرهنة، واللغوي بما يوضح أساليبه في التعبير والإقناع، ومن خلال هذا التداخل تتضح البنية الحجاجية للنص في أبعادها المختلفة.

1.3. المكون السياقي في كتاب البدء والتاريخ:

1.1.3. المؤلف والسياق الثقافي:

كما سلف الذكر فإن الدراسات الحجاجية من أبرز المجالات التي تكشف عن آليات الخطا ب وطرائق توجيهه للإقناع والتأثير، فالخطاب الحجاجي لا يقوم على البنية اللغوية وحدها، بل يتأس س على شبكة من المكونات التي تسهم في بنائه وتحديد مقاصده، ومن أهمها المكون السياقي الذي يضطلع بدور جوهري في توجيه الدلالة وربط النص بظروف الإنتاج والتلقي،

ويأخذ مصطلح السياق مسارا أكثر بعدا مع الدراسات التداولية، حيث تجاوز الإطار اللغوي إلى اللسياق الاجتماعي والنفسي والثقافي"[12] فلا يمكن الإحاطة بجزئيات الخطاب من دونه، إذ يض من حضور الكاتب في نصه ويكشف عن المتلقي ودرجات حضوره أيضا، ومن ثم فإن وضع الكتا ب في سياقاته المختلفة يعيدنا إلى الأطر المرجعية التي تحكم عملية الفهم.

ووضع كتاب البدء والتاريخ في سياقه الثقافي يعود بنا إلى **القرن الرابع للهجرة** وهي مرحل ة اتسمت بالتجزؤ والتناحر السياسي وضعف السلطة المركزية، وبرزت صراعات بين الفرق والمذاهب ، كما لعبت العصبيات القبلية والإقليمية دورا في تشكيل المشهد السياسي، وكل هذه العوامل مجتمع

ة أسهمت في خلق بيئة مضطربة لكنها كانت غنية بالحراك الثقافي و انعكس أثرها على النتاج الفكر ي والتاريخي لتلك المرحلة، فثقافيا وفكريا فقد كان هذا القرن من أخصب العصور في تاريخ الحضارة الإسلامية، فقد ازدهرت حركة التأليف وكذلك نشطت حركة الترجمة، وبرزت مراكز علمية كبرى في بغداد فشهدت الفلسفة وعلم الكلام مناظرات حادة بين المعتزلة والأشاعرة، كما برزت علوم اللغ ة والبلاغة والفقه والتاريخ، وهذا المناخ العلمي والفكري أغنى الخطاب الحجاجي إذ دفع المؤلفين إلى إعمال أدوات العقل والبرهان في مواجهة الخصوم الفكريين، وهو ما انعكس بوضوح في مصنّفات ذ لك العصر ومنها كتاب **البدء والتاريخ**، ولما كان السياق الثقافي في الدراسات الحجاجية يحتم علينا التطرق إلى ظروف ظهور المدونة، فإننا نجد أنفسنا ملزمين بالحديث عن المؤلف نفسه، وذلك لجملة أسباب وفي مقدمتها:

- قلة المصادر التي تناولت سيرته بشكل مباشر القديمة والمعاصرة، ففي القديمة ألفنا ذكره عرضا في جملة من المؤلفات وهي: كتاب **أبي منصور الثعالبي** (ت430هـ) الموسوم بـ (غرر أخبار م لوك الفرس وسيرهم)، وكتاب **أبو المعالي محمد بن عبدالله الفارسي** (بيان الأديان)، وكتاب مع جم البلدان لـــــ: **ياقوت الحموي** (626 هـ) والملاحظ على هذه الكتب أنّها نقلت البعض م ن أرائه ولم تورد تعريف له"[13]
- وأما في المصادر المعاصرة فلم نصادف غير الدراسة الموسومة بـــ: المطهر **المقدسي ومنهجه ال تاريخي في كتاب البدء والتاريخ** من إعداد الباحث محمد السيد إبراهيم البساطي، رسالة لنيل درجة الدكتوراه العالمية، جامعة الأزهر، 2008.
- نَدرة ما وصلنا عنه خارج إطار ما ورد في مؤلفاته، ولقد قدم لنا مادة نادرة تمثل انعكاسا لشخ صيته حيث إن كتابه يُعدّ مرآة لحياته وصورة لذاته، فلا يكاد يُفصل بين المؤلف ونصه، وتبقى كتاباته المصدر الرئيس للتعريف به ،ولم يتوقف الأمر عند حدود عدم الترجمة َله بل أشار الباح ث **محمد السيد إبراهيم البساطي** إلى أنّ اسم المقدسي ورد بصيغ متعددة: (**المطهر بن طاه ر، مطهر بن طاهر، والمطهر بن المطهر**) والصيغة الأولى هي الراجحة في نظر الباحث لأنّها أو ل الصيغ التي استخدمها الباحثون، ولقد ذكرها **زتنبرج** وهو أول من كتب عن المقدسي وص

حح نسبة الكتاب إليه، وأما بالنسبة للمكان مولده فعلى الأرجح قد يكون ولد بالقدس حيث ينسب، وإما بسجستان حيث عاش واستوطن"[14]

ولقد أشار في كتابه إلى إقليم نشأته سجستان" ثم ما نشاهده في إقليمنا بالعيان قبل مفازة سجستان وما فيها من آثار البنيان والمدن"[15] وكما ذكر التقلبات السياسية في هذا الإقليم، ولقد ت**طرق لرحلاته** والتي كانت علمية بالدرجة الأولى ومنها: **مكة المكرمة، إخميم، أسوار، صعيد مص**ر، وهذه الرحلات لم تكن مجرد جولات بين المدن والبلدان، بل شكلت في جوهرها مصدرا علميا ثر يا زاخرا بالمعلومات والمعارف، فقد أسهمت في تقديم مادية علمية غزيرة، امتدت لتشمل أوضاع الش عوب، عاداتهم وطبائعهم، وكما وفرت صورة دقيقة عن مختلف الحواضر الإسلامية من المشرق إلى الم غرب، فلم يقتصر على المراكز العلمية الكبرى كدمشق وبغداد والقاهرة، وإنّما شمل مناطق نائية وبلدا نا قلم تطرق إليها غيره من الرحالة، و أما عن **دواعي وأسباب تأليف الكتاب**، فقد ارتبطت بالظر وف الفكرية والدينية لعصر المؤلف وتعددت كما يأتي تفصيلها:

2.1.3. الدافع الديني:

إذ صرح هو بأن الدافع الأساس كان مواجهة ما انتشر من" تسلق الزائفون عن المحجة في ال تلبيس على الضعفاء، وتعلق المنحرفون عن نهج الحق في إفادة عقيدة الأغبياء من طريق مبادئ الخل ق ....ينبهون عزة الغافل، ويحيرون فطنة العاقل وذلك أذكى مكايدهم للدين"16 ينبهون عزة الغاف ل، ويحيرون فطنة العاقل وذلك أذكى مكايدهم للدين"[17] فلقد تأسس مشروعه على بيان الحقائق ا لمرتبطة بمبادئ الخلق، وبدايات التاريخ، وتفنيد ما روجه المنحرفون من أباطيل، ليجعل من كتابه وس يلةً للدفاع عن العقيدة الصحيحة وتحصين المتلقي من مكائد الخصوم.

3.1.3. الدافع التعليمي:

ومن بين الدوافع التي صرح بها المؤلف أيضا ما عدّه من أعظم الآفات التي ابتليت بها الأمة وهي" تصدي بعض العوام للمناظرة من غير إعداد ولا دراية بطرق العلم، ولا إلمام بأوضاع القول وأ دب الجدل، فقد رآى أن هؤلاء يقعون فريسة سهلة لأوهام الخصوم، فينهزمون عند أول مواجهة، ا لأمر الذي يضعف موقف الحق ويمنح الخصوم فرصة لبثّ الشبهات"[18]

4.1.3. الدافع النقدي:

وكما يشير المقدسي إلى فئة أخرى تمثل خطرا على العقيدة وهي "طبقة من أهل اللسان والبيان"[19] وهذه الفئة وظّفت قدراتهم البلاغية وقدرتهم على الجدل والحجاج في تضليل العامة، مستملين قلوبهم بظنون باطلة وقصص عجيبة تفتقر إلى البرهان، وقد عدّ المؤلف هذا الأسلوب سببا في إفساد العقول وشحن صدور العامة بترهات الأباطيل.

5.1.3. الدافع الفعلي:

وهو السبب الفعلي لتأليف الكتاب فقد جاء استجابة لطلب أحد أعيان عصره، ممن بلغوا الغاية في العلم، إذ رغب في تمييز الصحيح من المقالات، والأصوب من المذاهب فأمر المقدسي أن يضع كتابا يحقق هذا الغرض، جامعا بين الدقة في العرض، والحرص على تنزيه عقيدة التوحيد مما شابها من شوائب"[20]

ولقد صرح المؤلف بعنوان الكتاب فقال" وسمت هذا الكتاب بـ **البدء والتاريخ**"[21] مبينا أنه يشتمل على اثنين وعشرين فصلا ، وفيه إشارة إلى المنهجية التي اتبعها في ترتيب هذه المادة العلمية وكما يبرز في مقدمته بعدا حجاجيا ذا صلة بالمنطق، حين اعتبر أن الاطلاع على هذا العلم ضرورة منهجية لدرء الأوهام والتمييز بين الحق والباطل، فالكتاب لا ينهض فقط بوظيفة دينية وعقدية، بل يقوم أيضا على أساس حجاجي برهاني يجعل من المعرفة التاريخية أداة من أدوات إقامة الحجة، ويدخل النص المدروس في دائرة **الحجاج التقويمي** بالدرجة الأولى، إذ يقوم على تمييز الحق من الباطل وتقويم المذاهب والأفكار وفق معيار العقل والدين، غير أنّ خطابه لا يخلو من البعد التوجيهي، حيث يسعى المؤلف إلى إرشاد القارئ وتحذيره من تلبيس الخصوم.

وإن الخطاب الحجاجي في الأساس قائم على تفاعل مباشر بين طرفين هما: **متكلم ومخاطَب** ، غير أن كتاب البدء والتاريخ يتجاوز هذا النمط الحواري البسيط، فهو لا يقتصر على مجرد التبادل بين المتحاورين، بل يتحول إلى عملية فكرية أعمق، يتداخل فيها عرض الآراء مع نقدها وتقويمها، فينتج عن هذا التفاعل نص حجاجي مستقل يجمع بين الإقناع والتقويم.

وهذا ما نقف عليه في الخطاب الحجاجي عند المقدسي من خلال ما أورده " ...والمعرفة و كل ما يحصل منه إدراك شيء ظاهرا أو باطنا .....ألا ترى أن الإنسان العاقل المميز مضطرا إلى شواهد عقله وحسه غير مضطر إلى استدلاله وبحثه...أقول أن العقل قوة إلاهية مميزة بين الحق والباط ل، والحسن والقبيح، وأم العلوم وباعث الخطرات الفاضلة وقابل اليقين، وقد قيل إنّما سمي عقلا لأنّه عقال للمرء عن التخطي..... قال أرسطا طاليس في كتابه البرهان أن العقل هو القوة التي بها يقدّر الإنسان على الفكرة والتمييز بها، وبها يلتقط المقدمات من الأشياء الجزؤية يؤلف منها القياسات.. .. فقسمه إلى ثلاث أقسام: العقل الهيولاني، الفعال، والمستفاد"[22]

حيث يظهر نصه حضورا بارزا لما يمكن أن نسميه **الحوار الضمني**[23] أي ذلك التفاعل غير ا لمباشر- بين المؤلف وقارئه، فهو هنا لا يعتمد صيغة السؤال والجواب الصريحة، إلا أنه يوجه خطابه ، كأنّه يجيب عن تساؤلات مسبقة لدى المخاطَب: ما هو العقل؟ وما قيمته؟ وكيف يميز بين الحق وال باطل؟ وإن تقسيمات العقل إلى: (العقل الهيولاني، الفعال، المستفاد) واستدعائه للشواهد من كتب الأخلاق والفلاسفة يكشف عن استحضاره لمتلق محتمل قد يشكك أو يبحث عن برهان، فيسعى ا لمؤلف إلى إقناعه مسبقا، وهذا الأسلوب يشي بوعي تداولي حجاجي، حيث يجعل النص يتحرك ب ين المؤلف والمتلقي المفترض، فيتأسس تفاعل حواري داخله بصورة غير معلنة، وهو ما يمنحه قوة إقنا عية حتى في غياب معارضة صريحة.

وخلاصة القول إنّ فهم كتاب البدء والتاريخ لا يستقيم من غير استحضار السياق الثقافي الذ ي وضع فيه، بما يحمله من معطيات سياسية وعقدية وفكرية، فالمؤلف لم يكن معزولا عن جدالات عصره، بل عبر عن انشغالاته وهمومه من خلال مشروع أراد به الدفاع عن العقيدة وتصحيح التصورا ت وتحصين العقول من التلبيس، ومن ثم فإن هذا السياق يعدّ مفتاحا أساسيا لقراءة المدونة قراءة ح جاجية تبرز تداخل الخطاب الديني مع مقتضيات المنطق والحوار، وهو ما يمنح الكتاب قيمته العلمية .

4. المكون المنطقي:

لقد بنى خطابه وفق لنظام السيرورة الحجاجية التالية:

1.4. مرحلة الافتتاح:

يأتي **الفصل الأول** بعنوان **تثبيت النظر وتهذيب الجدل** وهو يمثل المرحلة الافتتاحية التي يقوم عليها البناء الحجاجي في الكتاب، إذ ينهض بمهمة تأسيس القواعد المنطقية التي تمهد للنقاش وتؤطره، فقد جمع المقدسي فيه القول في (معنى العلم والجهل)، والبحث في كمية العلوم و مراتبها وأقسامها) ،وبعدها انتقل إلى بيان (العقل والمعقول) وما يقابله من (الحس والمحسوس)، وتدرج إلى درجات المعلومات وما يتصل بها من (الحد والدليل)، وعرج على مسائل (المعارضة والقياس والنظر و الاجتهاد)، وكما أفرد مساحة للقول في (الفرق بين الدليل والعلة)، وخاض في (الحدود والأضداد ...) فضلا عن تطرقه لأهل العناد ومبطلي النظر ، وعرج على علامات الانقطاع التي تضع حدا لل مناظرة "[24] وعليه فالفصل الأول هو قاعدة تأسيسية رسمت معالم الكتاب، وتزود المتلقي بأدوات عقلية وضوابط منهجية قبل الانتقال إلى مرحلة المواجهة مع الخصوم.

و لقد بنى المقدسي افتتاح كتابه وفق سيرورة حجاجية محكمة، إذ انطلق أولا من تقرير بديهيات عقلية – حسية لا تقبل الجدل، مثل " استحالة أن تدرك الحواس النار باردة وهي في ذاتها حارة ، أو أن يعلم المتحرك ساكنا، ثم انتقل ثانيا إلى بيان النتيجة المترتبة على نفي هذه البديهيات، وهي بطلان العلوم وفساد العقائد وانفتاح الباب أمام المغالطات"[25] ، وبذلك يكون قد أسس ثالثا على هذا البرهان ضرورة التزام المنهج العقلي السليم في النظر، باعتباره الضامن لمطابقة العلم للواقع وحماية الفكر من التناقض، وهذه السيرورة الحجاجية تكشف عن وعي المؤلف بأهمية الافتتاح المنطقي لكتابه، وإدراكه لدور البرهان في إقناع القارئ.

ولما كانت هذه المرحلة الافتتاحية في البناء الحجاجي تقوم على إرساء الأسس العقلية من أجل تهيئة المتلقي حيث نبهه إلى ما قد يلابس النفس من أوهام وخطرات تفسد صفاء التفكير حيث يصرح بأن فهم هذا الباب من الأسباب المعينة على درك الحق والتمييز بينه وبين نقيضها، ولا غناء بأحد عن مطالعته والإشراف عليه ليعرف الصدق من نفسه ومن غيره، فقد يعترض من الفكر والتخايل والأوهام الفاسدة والخطرات الرديئة ما يلتبس معها الحق ويتغلّب عندها الظن والشكّ"[26]

وفي حديث المؤلف عن **الحد والدليل والمعارضة والقياس والنظر والاجتهاد**، نجده يولي عناية خاصة **لمفهوم الحد**، باعتباره أداة أساسية في التمييز بين الحقائق وضبط التعريفات، فقد عرفه بأنّه ما دلّ على عين الشيء وعرضه بإحـ ـاطة وإيجاز، وشبهه بالحدود التي تفصل الأملاك وتبين نصيـ ـب كل واحد من الآخر ، ومنه فإن الزيادة على الحد تُعدّ نقصانا، كما أن النقصان منه زيادة، وكلا هما يؤدي إلى إبطال الحد المطلوب، على نحو المثال الذي ساقه: الإنسان حي ميت ناطق، إذ يجتمع فيه التضاد بما يخل بالحد الصحيح"[27] ويكشف هذا الطرح عن وعي المؤلف بأهمية الضبط المنطقي في بناء القول الحجاجي.

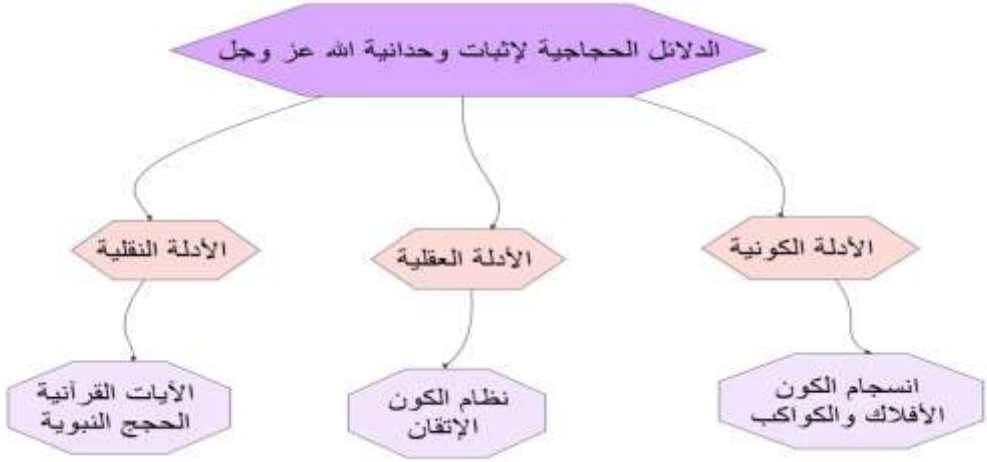
وفي مبحثه عن **القياس** فقد بين المؤلف مكانة هذه الأداة المنطقية في ضبط التفكير وإقامة الـ برهان، فالقياس"[28] وحين يتناول المؤلف **مسألة درجات العلوم** فلاحظنا أنه لم يكتف بالتعريف الـ فلسفي لها، حيث" قسم العقول إلى ثلاثة أضرب: واجب، سالب، وممكن، والواجب في العقل هو ما يثبت بذاته وباستدلال العقل عليه، كما في إدراكنا أن البناء يقتضي بانيا، والكتابة لا تكون مـ ـن دون كاتب، و لابد لكل صنعة من صانع، وأن الواحد والواحد اثنان، وأن الشيخ كان شابا، والـ صغير كان رضيع، وأما السالب فهو ما يستحيل قبوله في العقل لاستلزامه التناقض"[29]

و الحجاج في هذه المرحلة الافتتاحية وإن كان مخصص للحدود والتعريفات فإنّه قدّم أمثلة حـ ـجاجية تكشف عن طريقة توظيفه للتعريفات والحدود في سياق الاستدلال، ومن ذلك قوله في حدّ الشيء: أن يكون مثبتا موجودا، لأن الوجود والإثبات يشملان كل الموجودات كما يشملان ما يقابـ ـلها من المجهول، وقد خالفه في هذا بعض العلماء وأقروا بأن حدّ الشيء يجب أن يقتصر على الموجو ـد المثبت فقط، والمنفي والمعدوم لا يدخلا يعدان مثبتين، وللرد على هذا استند إلى نصوص من الوحـ ـي ومنها قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا** ﴾ (**سورة مريم، الآية 67**) نافيا بذلك أن يكون الإنسان شيئا قبل أنَ يخلق"[30] ويكشف هذا المثال عن طبيعة الحجاج في الافتتاح، إذ يقوم على الجمع بين المنطق العقلي والنص القرآني.

ويتبين مما سبق أن مكونات الفصل الأول وعناصره المتضمنة فيه من مباحث متنوعة (العلم و الجهل، العقل والحس، الحد والدليل، المعارضة والقياس .....) لم تكن مجرد تمهيد نظري معزول، بل جاء بمثابة أرضية راسخة ينبني عليه الحجاج فيما بعد.

2.4. مرحلة المواجهة:

الفصل الأول لا يعدّ مواجهة فعلية بقدر ما هو مهاد نظري وتهيئة ذهنية للمتلقي، فضبط الحدود و الأدوات المنطقية والجدلية التي تعدّ شرطا أوليا للانخراط في أي حجاج، أما الفصل الثاني فيمثل بداية الحجاج، إذ ينطلق فيه من القول بأن" الدلائل التي تدل على إثبات الله عز وجل غير محصاة ولا متناهية في أوهام الخلائق، لأنّها بعدد أجزاء أعيان الموجودات من الحيوان والنبات وغير ذلك مما خفي عن الأبصار لأنّه ما من شيء وإن صغر جسمه ولُطف شخصه إلا وفيه دلائل تعبر عن ربوبيته وتصرح عن إلاهيته تصريحا ينتفي مع أدناها الشبهة، ويزاح العلّة وإلى هذا المعنى نظر بعض المحدّثين وفي كل شيء له آية تدل على أنّه واحد ولن يجوز غير ما قلنا"[31] فيقرر المؤلف أن في كل جزء من الموجودات دلالة صريحة على وحدانية الخالق وربوبيته، من الأدلة على إثبات البارئ سبحانه وتعالى أنه خلاف بين الأوائل والأواخر ما يلي:



وما يلفت الانتباه في هذه المرحلة هو " التعدد الاستدلالي"[32] حيث لم يحصر الحجة في بعـ د واحد، بل استثمر جملة من الشواهد المتنوعة، وتكشف هذه التعددية أن المؤلف كان واعيا بأن الحـ جاج الفعال لا يبنى على نمط برهاني واحد، وإنما يتعاضد فيه الحسي والعقلي، والكوني والتاريخي، لإ حكام الدليل وتوسيع أثره في المخاطَب، و لا يكتفي بتعدد الأدلة الكونية والعمرانية على وجود الخا لق، بل يختم مقطعا حجاجيا بعبارة " هذا حمدا اخرناه إلى حيث قدّرنا أنه أولى به وأليق"[33] وهذه الا ستراتيجية مقصودة وهي جزء من البنية الحجاجية مؤكدة على أن كل ما سبق غايته الإقرار بالربوبية، وكما اعتمد في هذا الباب **المواجهة المباشرة**، منتقلا من **الحجاج الجدلي** إلى **الحجاج البرهاني** القا ئم على الأدلة العقلية والكونية التي ترسخ الإيمان بوحدانية الله.

3.4. مرحلة الاختتام:

ويختتم كتاب– البدء والتاريخ – بالجزء السادس، حيث يورد المؤلف أخبار ولاية بني أمية والخ لافة العباسية، ليدخل البعد التاريخي– السياسي في صلب عمله، ويكشف هذا الختام عن اتساع منـ ظور المؤلف، إذ لا يكتفي بتثبيت الأصول العقدية والجدلية، وإنما يربطها بالمسار التاريخي السياسي للأمة العربية والإسلامية، وبهذا يغدو الكتاب دائرة متكاملة تبدأ بالتقعيد المنطقي، وتنتقل إلى الحجا ج العقدي، ثم تغلق بالسرد التاريخي، في إشارة إلى أن الفكر الديني والجدل الكلامي لا يمكن فصلهـ ا عن التاريخ الإسلامي.

5. المكون اللغوي:

بعد أن وقفنا على البنية الحجاجية في كتاب البدء والتاريخ وما انطوت عليه من آليات استدلالية، يتـ بين أن اللغة عند المؤرخ لم تكن مجرد أداة للتبليغ، بل هي أداة محاججة وعليه فمن الضروري الانتقال إلى دراسة المكون اللغوي لضرورته في تشكيل المعاني وإبراز المقاصد، ومن خلال تصفح المدونة اقتر حنا المخطط التالي لتتبع مسار المكون اللغوي.

1.5. العوامل الحجاجية:

ومن خلال الوقوف على قول المقدسي " ومن الدليل على إثبات البارئ جل وعز أنه لا يخلو لسان أمة من الأمم في أقطار الأرض وآفاقها إلّا وهم يسمونه بخواص من أسمائه عندهم"[34] يتضح

لنا حضور واضح **للتوكيد** وكذلك **التعليل** حيث استهل القول بأداة تعليل صريحة – ومن الدليل– ، و صيغة النفي والاستثناء (لا يخلو...إلا)، وهذه الصيغ ذات أثر حجاجي قوي وتجعل الحجة أكثر تأثيرا في المتلقي.

2.5. الروابط الحجاجية:

لقد أدت دورا أساسيا في البرهان والإقناع وأسهمت في انسجام النص وترابطه وتتجلى في قوله " قد بينا مقالات العالم في حدث العالم وقدمه وقد ذكرنا أراءهم في المبادئ وكشفنا عن عوار كل من خالف الحق ودلّنا على أن مأخذ هذا العالم لا يصح إلا من جهة الوحي والنبوة"[35] نلاحظ في القول توظيف مكثف لمجموعة من الروابط الحجاجية، ويشكل تتابع الأفعال" بينا، ذكرنا، كشفنا، دللنا" رابط تدريجي يعبر عن تطور المسار الحجاجي.

6. الآليات البلاغية الحجاجية بين المتعة والإقناع:

وفي حال مقاربة البلاغة باعتبارها إحدى آليات الحجاج، نجدها من أبرز الوسائل التي تَظهر الطابع الحجاجي في معظم الخطابات فهي تسعى إلى استمالة المتلقي من خلال أساليبها الجمالية، كالتشبيه والاستعارة والكناية، " غير أنّ هذه الأساليب قد تَفصل أحيانا عن سياقها الجمالي لتؤدي وظيفة أخرى غير الإنشاء الفني، ومن هنا يتبين أن أغلب الأساليب البلاغية تتميز بخاصية التحول لتنجز مقاصد حجاجية وإقناعية متنوعة، وتفيد أبعاد تداولية "[36] فالخطاب الحجاجي وإن كان خطاب إقناعي يخاطب العقل بالدرجة الأولى إلا أنّه يحمل في ثناياه متعة فنية تتحقق عن طريق توظيف الأساليب البلاغية والوسائل التعبيرية المختلفة، إذ تمنحه هذه الآليات بعدا جماليا يضاعف من أثره في المتلقي ومن هنا فإن قيمته لا تقتصر على وضوح البيان فحسب، بل تمتد لتشمل ما يخلقه من تفاعل وجداني ونفسي يبدّد عناصر الملل ويشدّ الانتباه إلى المحتوى المقدم.

1.6. التشبيه:

يعدّ التشبيه من أبرز هذه الآليات، حيث يمنح الخطاب مقدرة على تمثيل المعاني المجردة في هيئة محسوسة، مما يزيد وضوح الحجة ويدعم تأثيرها، فهو ليس مجرد صورة بيانية تجميلية بل وسيلة لتعزيز الإقناع، ويتجلى هذا في قوله "كما تفزع النفس عند المكاره المخوفة إلى طلب المهرب والنجاة ،

كما يفزع الطفل إلى ثدي أمه[37]"حيث إن التشبيه هنا لا يتمثل دوره في نقل صورة جمالية، بل له و ظيفة حجاجية، مقربة المعنى العقلي المجرد، وهو لجوء الإنسان إلى الله عند الشدائد، انطلاقا من مثا ل محسوس راسخ في الفكر الإنساني وهو (لجوء الطفل إلى أمه طلبا للغذاء والأمان)، وهذا ما يقو ي الحجة ويزيد من فاعليتها.

2.6. الاستعارة:

تعتبر الاستعارة الحجاجية من وسائل الحجاج- التي يستعملها المتكلم للوصول إلى أهدافه الح جاجية، وتتجلى الاستعارة في نص المقدسي بوصفها بلاغية تجمع بين البعد التصويري والمقدرة الإق ناعية في قوله" فإذا انكشف الغطاء عن وجهه وصرح به المحض عن زبده، وأومض الحق سيره، فلا يـ سع حينئذ غير الإقرار والانقياد له"[38] فالتصوير البياني جاء لتقريب الحجة إلى الذهن وإضفاء قوة إ قناعية عليها، فالاستعارة الحجاجية التي توظّف لتقوية الخطاب وإحداث أثر نفسي في المتلقي.

3.6. الكناية:

وتظهر الكناية في خطاب المقدسي بوصفها آلية بلاغية دقيقة تستعمل للتلميح دون التصريح ، وللدلالة على المعاني العميقة، وتجلت في أمثلة متعددة ومنها" القلوب في آثار الدلائل عليه حائرة" [39] فهي كناية عن عجز الإنسان عن الإحاطة بكمال الخلق رغم وضوح الأدلة، وبهذا تؤدي الكناية في نص المقدسي وظيفتين متكاملتين: فهي آلية بلاغية للإمتاع عن طريق قدرتها التلميحية، وأداة حجاجية للإقناع عبر توظيف الإيحاء لإثبات المعنى عن طريق الإيحاء، وهذا ما يجعل حضورها جزءا من البنية الحجاجية التي ارتكز عليها المقدسي.

7. خاتمة

يمكن القول بأن البنية الحجاجية في مدونة البدء والتاريخ تقوم على تدرج واضح في بناء الحج ج والبراهين، ولقد اتسمت بـــ: تنوع طرائق الإقناع، الاحتكام للنصوص القرآنية، الاستدلال بالعق ل والبرهان المنطقي، توظيف الأخبار والمرويات التاريخية.

يتبين في ضوء هذا التحليل أنّ كتاب البدء التاريخ ليس مجرد تجميع للأخبار أو تدوين للوقائ ع، بل هو مشروع حجاجي يستثمر أدوات المنطق وآليات البيان لتأسيس رؤية فكرية متماسكة وم ن أهم النتائج التي توصل لها البحث ما يلي:

* إن المقدسي لم يكتب كتابه على هيئة سرد تاريخي صرف، بل صاغه وفق بناء حجاجي مقصود يوازن بين الأخبار والتأملات الفلسفية، وكما وازن بين نقل الحقائق وتحليلها.
* يقوم الحجاج على ثلاثة أبعاد متداخلة وهي:(البعد السياقي، البعد المنطقي، البعد اللغوي).
* اعتمد المقدسي على الاستدلال العقلي والبداهة المنطقية باعتبارهما معيارين للفصل بين الحق والـ باطل، وجعل منهما أداة لتقويم الفكر ومواجهة الانحرافات.
* يندرج خطاب الكتاب ضمن الحجاج ذي الطبيعة التقويمية التوجيهية، حيث يسعى المؤلف إلى تثبيت العقائد الصحيحة ورد الشبهات وإرشاد القارئ إلى طرائق المعرفة الرصينة
* تكشف هذه القراءة أنّ الحجاج ليس عنصرا ثانويا في كتاب البدء والتاريخ، بل هو جوهر الخطا ب الذي يمنحه قيمته الفكرية وفرادته في التراث الإسلامي.

8. قائمة الإحالات:

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1981م، مادة دال.

[2] الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998م، ص 303.

[3] ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب- دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ط1، دار الطليعة الطليعة، بيروت، 2005م، ص 05.

[4] المرجع نفسه.

[5] عبد الهادي بن ظفر الشهري، استراتيجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية-، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004م، ص 23.

[6] محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ط1، النجاح الجديدة، 2005، ص 07.

[7] أمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النبوي- دراسة تداولية-، ط1 ، الدار المتوسطية، للنشر، تونس، 2016، ص 21.

[8] أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، عبد المجيد تركي، ط2، دار الغرب الإسلامي، المغرب، 1987م، ص 08.

[9] سامية دريدي، الحجاج في الشعر العربي – بنيته وأساليبه-، ط2، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2011م، ص 21.

[10] سامية دريدي، المرجع نفسه، ص 23.

[11]الشهري عبد الهادي بن ظافر، آليات الحجاج وأدواته ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته- دراسة تنظيرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة- إعداد وتقديم حافظ إسماعيل علوي، ج1، (الحجاج حدود وتعريفات)، ط1، عالم الكتاب الحديث، إربد، 2010م، ص 76.

[12]علي أيت وشان، السياق وانص الشعري - من البنية إلى القراءة-، ط1، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2000، ص 15.

[13]محمد السيد إبراهيم البساطي، المطهر المقدسي ومنهجه التاريخي في كتاب البدء والتاريخ، رسالة لنيل درجة الدكتوراه العالمية، جامعة الأزهر، 2008، ص 24.

[14]المرجع نفسه، ص 22.

[15]المطهر بن الطاهر المقدسي، البدء والتاريخ، ج2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت)، ص 149.

[16] المقدسي، البدء والتاريخ، ج 3، ص 209).

[17]المطهر بن الطاهر المقدسي، البدء والتاريخ، ج3، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت)، ص 209.

[18]المطهر بن الطاهر المقدسي، البدء والتاريخ، ج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت)، ص 1.

[19]المرجع نفسه، ص 3.

[20]المرجع نفسه، ص 5.

[21]المرجع نفسه.

[22] المرجع نفسه، ص 23.

[23]عبد الهادي بن ظافر، مرجع سابق، ص 374.

[24]المطهر بن الطاهر المقدسي، ج1، مرجع سابق، ص 8.

[25]المرجع نفسه، ص 18.

[26]المرجع نفسه.

[27]المرجع نفسه، ص ص 30-31.

[28]المرجع نفسه، ص 36.

[29]المرجع نفسه، ص ص 29-30.

[30]المرجع نفسه، ص 37.

[31]المرجع نفسه، ص 57.

[32]المرجع نفسه.

[33]المرجع نفسه، ص 60.

[34]المرجع نفسه، ص 70.

[35]المدونة، ج1، ص 7.

[36]صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، ط1، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، 2008، ص 50.

[37]المدونة، ج1، مرجع سابق، ص 60.
[38]المطهر بن الطاهر المقدسي، ج1، مرجع سابق، ص 54.
[39]المرجع نفسه، ص 108.